الفصل الأول

التربية : مفهومها - تطورها - أهميتها - أصولها

معنى التربية :

إذا بحثنا في المعاجم اللغوية العربية لتحديد معنى التربية فإننا نجد أنها ترجع في أصلها اللغوي العربي إلى الفعل (ربا - يربو) أي نما وزاد . وفي التنزيل الحكيم " وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء إهتزت وربت " أي نمت وزادت لما يتداخلها من الماء والنبات . وتقول ربي فلان في بيت فلان أي نشأ فيه . وباه بمعنى نشأه ونمى قواه الجسدية والعقلية والخلقية . . وفي التنزيل الحكيم أيضا : " قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين " . " وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا " . وورد في " الصحاح " في اللغة والعلوم أن التربية هي تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف " . وهكذا يتضمن المعنى اللغوي للتربية عملية النمو والزيادة . ومن الطبيعي أن يكون هذا النمو وتلك الزيادة من جنس الشيئ وطبيعته . وبالنسبة للإنسان يكون هذا النمو في جسمه وعقله وخلقه وكل مقومات شخصيته. وهذا المعنى اللغوي للتربية على أنها عملية نمو هو لب معنى التربية بمعناها الإصطلاحي في أذهان المربين .

والواقع أن هناك عدة معان للتربية تتفرع كلها من عملية النمو . فهي بالمعنى الواسع تتضمن كل عملية تساعد على تشكيل عقل الفرد وخلقه وجسمه باستثناء ما قد يتدخل في هذا التشكيل من عمليات تكوينية أو وراثية . وهي بهذا المعنى تعني التنشئة الاجتماعية المتكاملة للفرد .

والتربية بمعناها الضيق تعني غرس المعلومات والمهارات المعرفية من خلال مؤسسات معينة أنشئت لهذا الغرض كالمدارس مثلا . وهي بهذا المعنى تصبح مرادفة للتعليم . ولا شك في أن التعليم هو جانب جزئي من جوانب التربية يقتصر على تنمية الجانب العقلي والمعرفي والمهاري . وهذا المعنى للتربية هو من جانب المتعلم سواء كان تعمله من خلال اكتشافاته وخبراته الخاصة أو من خلال تعلمه على أيدي أناس آخرين .

ويشار إلى علم التربية أحيانا بالبيداجوجيا Pedagogy . وهي كلمة ترجع في

أصلها إلى الإغريق وتعني " توجيه الأولاد " . وتتكون من مقطعين Paid وتعني ولد و agogus وتعني توجيه . والبيداجوج عند الإغريق تعني المربي أو المشرف على تربية الأولاد . وتشير بيترسون في كتابها عن التدريس الناجح (١٩٩٢) إلى أن مالكولم نويلز Malcolm Knowles في كتابه Self- Directed Learning (ص ٢٧) قد طور مصطلحا جديداً هو Andragogy كمصطلح مناسب لتعليم الكبار تمييزا له عن تعليم الصغار . وأنه يمكن أن يطلق على التعليم النشط . ذلك أن الطريقة البيداجوجية في نظر بيترسون مناسبة للصغار لأنها تؤكد على اعتماد المتعلم على المعلم في التدريس وعلى قيادته وسلطته ونفوذه . لكن مناسبة هذه الطريقة لتعليم الكبار هي محل تساؤل لأن للكبار خبراتهم وتجاربهم في الحياة. *

ويقدم معجم العلوم السلوكية عدة تعريفات للتربية من أهمها (Wolman.p.13) :

١ - أن التربية تعني التغيرات المتتابعة التي تحددت للفرد والتي تؤثر في معرفته واتجاهاته وسلوكه كنتيجة للدراسة والتعليم المدرسي .

٢ - أن التربية تعني نمو الفرد الناتج عن الخبرة أكثر من كونه ناتجا عن النضج . ويقدم " جود " "Good" في معجمه التربوي أربعة معان للتربية :

أ - هي مجموعة العمليات التي من خلالها يقوم الفرد بتنمية قدراته واتجاهاته وصور أخرى من السلوك ذات القيمة الإيجابية في المجتمع الذي يحيا فيه .

ب - هي العملية الاجتماعية التي يخضع الأفراد من خلالها لتأثيرات بيئة أو وسط منتقى ومضبوط (كالمدرسة مثلا) وذلك حتى يمكن لهم أن يحققوا كفاءتهم الاجتماعية وأقصى نموهم الفردي .

جـ - هي الفن الذي بواسطته يتوفر لكل جيل من الأجيال معرفة الماضي في صورة منظمة .

---

* لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع أنظر لنفس المؤلف كتاب : الاتجاهات الحديثة لتعليم الكبار. عالم الكتب . ١٩٩٧ .

د - هي مصطلح عام يقصد به عادة المقررات المهنية التي تقدم في معاهد التعليم العالية لإعداد المعلمين . مثل : علم النفس التربوي - فلسفة التربية - تاريخ التربية - المناهج وطرق التدريس والإدارة والإشراف . . الخ (Good . p.202)

ماذا يقول فلاسفة التربية ومفكروها ؟

إذا رجعنا إلى ما يقوله فلاسفة التربية لتحديد مفهوم التربية نجد هناك عدة تعريفات : فقديما عرف أفلاطون فيلسوف الإغريق التربية بأنها تدريب الفطرة الأولى للطفل على الفضيلة من خلال اكتسابه العادات المناسبة . وهو يرى أن الاتجاه الذي سارت فيه التربية منذ البداية يحدد مستقبل حياة الفرد . ويؤثر عن أرسطو قوله إن الفرق بين المتعلم والجاهل كالفرق بين الحي والميت . وهو يرى أن التعليم خير مؤونة وزاد للشيخوخة أو خريف العمر . ويقول لودج : " هناك معنيان للتربية أحدهما واسع والثاني ضيق . أما المعنى الواسع فيعني أن التربية تعادل الخبرة أي خبرة الكائن الحي في تفاعله مع بيئته الطبيعية . أما في معناها الضيق فيقصد بها التعليم المدرسي " . ويعرف " ميلتون " التربية الصحية بأنها التربية التي تساعد الفرد على تأدية واجباته العامة والخاصة في السلم والحرب بصورة مناسبة وماهرة . و يرى " توماس الإكويني " أن الهدف من التربية تحقيق السعادة من خلال غرس الفضائل العقلية والخلقية . ويرى " هيجل " أن الهدف من التربية العمل على تشجيع روح الجماعة وتخليص الفرد من روح الأنانية . ويعرف " دوركايم " التربية بأنها الإجراء الذي تمارسه الأجيال الأكبر سنا على الأجيال التي لم تستعد بعد للحياة الاجتماعية . وهدف التربية إيقاظ وتنمية تلك الجوانب الجسمية والعقلية والخلقية للطفل التي يتطلبها منه كل من المجتمع والبيئة التي أعد من أجلها .

ويعرف " هرمان هورن " وهو أحد الفلاسفة المثاليين التربية بأنها العملية الخارجية للتوافق السامي مع الله من جانب الإنسان الحر الواعي الناضج جسميا وعقليا . كما يعبر عن هذا التوافق في بنية الإنسان العقلية والانفعالية والإرادية. ويقول " بستالوتزي " في معنى التربية إن التربية الحقة المثمرة تتمثل أمامي كشجرة غرسها على مقربة من مياه جارية . بذرتها الصغيرة تنمو منها الشجرة وتستمد منها صفاتها المدفونة في الطمي . والشجرة كلها سلسلة متصلة

الحلقات مكونة من أجزاء عضوية . والإنسان يشبه هذه الشجرة . ففي الطفل تكمن تلك الملكات والقوى الإنسانية التي تنمو فيما بعد . كما أن الفرد وأعضاءه المختلفة لا تلبث أن تتشكل وتصير وحدة كاملة " . ويقول " ديوي " في التربية إني أعتقد أن الطفل الذي نريد تربيته فرد اجتماعي وأن المجتمع وحدة عضوية مؤلفة من أفراد . وإذا نحن أسقطنا العامل الاجتماعي من حساب الطفل بقينا أمام شيئ مجرد . وإذا أسقطنا العامل الفردي من المجتمع لم يبق إلا جمهور بغير حركة أو حياة . من أجل ذلك كان لابد للتربية أن تبدأ بالنظر في قوى الطفل واهتماماته وعاداته . وكان لابد أن تضبط بالرجوع إلى هذه الاعتبارات ، و لابد أن تفسر على الدوام هذه القوى والاهتمامات والعادات بمعرفة ما تدل عليه. ولابد من ترجمتها إلى نظائرها الاجتماعية أي إلى اللغة التي بها تستطيع القيام بخدمة اجتماعية . وفي عبارة أخرى نجد أن " جون ديوي " وهو أحد فلاسفة التربية البراجماتيين يعلن أن :" التربية قد تعرف بأنها عملية مستمرة لإعادة بناء الخبرة بهدف توسيع وتعميق مضمونها الاجتماعي " . وهكذا يرى "ديوي " أن التربية نمو إلى ما هو أحسن بالنسبة للفرد والجماعة . وفي رأيه أنه ليست هناك أهداف ثابتة للتربية .

ويتفق جون ديوي مع " فروبل " على أن للتربية وجهين أو جانبين : أحدهما سيكولوجي والآخر اجتماعي . ومن ثم فإن التربية تعني بتربية " فرد في مجتمع" فالاعتبارات السيكلوجية تمثل قاعدة لعملية التربية . وكذلك طبيعة مجتمع تمثل قاعدة أخرى لها . والتربية تحدث من خلال اشتراك الفرد في المجتمع . ويتفق "بستالوتزي " مع " فروبل " على أن التربية يجب أن تستهدف الإصلاح الاجتماعي من خلال تنمية امكانيات الفرد . وتبعا للتفكير المسيحي " فإن التربية تعني بصفة أساسية إعداد الإنسان لما ينبغي أن يكون عليه ولما ينبغي أن يفعله هنا على الأرض بقصد بلوغ الغاية العليا في الآخرة " .

والتربية في الإسلام تعني بلوغ الكمال بالتدريج . ويقصد بالكمال هنا كمال الجسم والعقل والخلق والدين ، لأن الإنسان موضوع التربية . والإنسان خليفة الله على الأرض ، وكرمه على كثير من خلقه وجعل الملائكة تسجد له . ولذلك يجب أن تأتي تربية الإنسان متمشية مع مطالب هذه الخلافة بجوانبها المختلفة . وسنفصل ذلك عند الكلام عن خصائص المفهوم الشامل للتربية الإسلامية . ويرى

الشيخ محمد عبده (١٨٤٩م - ١٩٠٥م) أن التربية هي الطريق الوحيد لنهضة الأمة الإسلامية وتجديد أوصالها . وفي ذلك يقول : إنني أدعو إلى التربية لأنني عرفت أية ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه اليوم وتقوم على غراس تغرسه اليوم وتقوم على تنميته السنين الطوال " . وهو يرى أن فقر العلوم والتربية أشد ضروب الفقر .

مفهوم التربية والمفاهيم الأخرى :

يختلط مفهوم التربية بغيره من المفاهيم الأخرى المتصلة كما سبق أن رأينا في عرضنا السابق لمفهوم التربية . ومن المفاهيم التي تختلط بالتربية مفهوم التعليم . وكثير من وزارات التربية في البلاد العربية تحمل الإسمين معا "التربية والتعليم " . ويقصد بالتربية هنا ما يدور في المدارس والمؤسسات التعليمية ، أي التربية المدرسية أو الرسمية .

ويختلط مفهوم التربية أيضا بالتعلم . والتعلم بصرف النظر عن تعدد نظرياته هو تغير في الأداء يحدث تحت شروط الممارسة . وهو بهذا المعنى يشمل الإنسان والحيوان . فكما أن الإنسان يتعلم فإن الحيوان أيضا يتعلم . ويختلف التعلم عن مفهوم التربية المدرسية في أن التعلم لا يقتصر على المدارس أو مؤسسات التعليم . فالإنسان يتعلم في داخل المدرسة وخارجها . كما أنه يتعلم طول حياته . وبهذا يختلف التعلم عن التربية المدرسية وإن كان إحدى وسائلها . كما أن التعلم يختلف عن التربية بصفة عامة سواء كانت مدرسية أو غير مدرسية في أنه يمكن أن يتم في ظل أي ظروف مقصودة أو غير مقصودة . أما التربية فإنها عملية مقصودة موجهة . وقد يختلط مفهوم التربية بالتدريب . والخلط المميز بينهما يتمثل في عملية التفكير النقدي . فالتربية على عكس التدريب تتضمن تفكيرا نقديا . في حين أن التدريب هو عادة عملية محكومة يقصد بها اكتساب أو تحسين مهارات سلوكية كما هو معروف . وقد شاع في الماضي استخدام كلمة التدريب وما زالت تستخدم في مجالات التدريب المهني أو التدريب أثناء الخدمة وإن كان استخدام المصطلح الأخير في طريقه إلى الإندثار بالنسبة لميدان التربية والتعليم . فيكثر الآن على سبيل المثال استخدام " تربية المعلمين أثناء الخدمة " بدلا من تدريب المعلمين أثناء الخدمة .

ويمكننا توضيح العلاقة بين هذه المفاهيم بالقول بأنها ترتبط فيما بينها بدوائر تتسع وتضيق . وأوسع هذه الدوائر وأشملها دائرة الحياة بما فيها من خبرات هائلة يأتي بعدها دائرة التعلم وتليها في الإتساع يليها دائرة التربية ثم دائرة التدريب وهي أضيق الدوائر . أما التعليم المدرسي فإنه يشتمل على قطاع من كل من هذه الدوائر .

ويصور أحد رجال التربية العلاقة بين هذه المفاهيم المتداخلة بالشكل التالي :

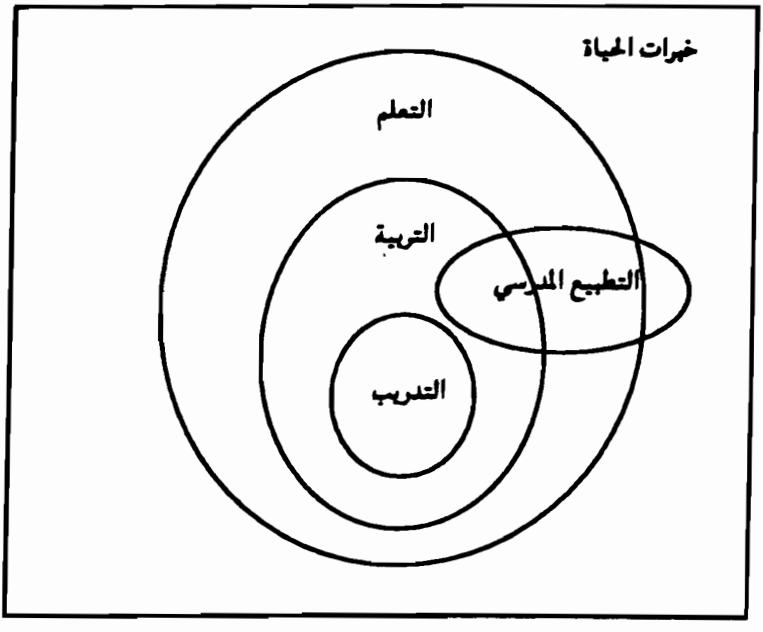

العلاقة بين بعض المفاهيم المتصلة بالتربية

اختلاف النظرة إلى مفهوم التربية :

لقد اختلفت النظرة إلى التربية كما رأينا في التعاريف السابقة . ويبدو أن هذا الاختلاف قائم منذ فجر التاريخ . ففي عبارة منشهورة لأرسطو يقول فيها " تختلف الآراء حول موضوعات التربية . فالناس لا تتوحد فكرتهم بالنسبة لما ينبغي أن يتعلمه النشء ولا بالنسبة للكمال الإنساني ولا بالنسبة لأفضل حياة ممكنة . بل وليس من الواضح ما إذا كان الواجب توجيه التربية أساسا إلى العقل أو الخلق . وما إذا كانت مواد الدراسة المناسبة هي تلك المفيدة في الحياة أو تلك التي تصنع الكمال أو تلك التي تنمي أواصر المعرفة . ليس جميع الناس سواء

في تقديرهم للكمال الإنساني المتميز . ومن ثم فمن الطبيعي أن يختلفوا حول الإعداد المناسب للوصول إليه " . ومن الطبيعي بالنسبة لموضوع هام كالتربية أن تختلف وجهات النظر فيه . فقد ينظر إلى التربية على أنها تهذيب الخلق وتنمية الأخلاق الحميدة في الإنسان وتربيته على الكمال والفضيلة . وهذا هو مفهوم التربية بمعناها التهذيبي أو التأديبي . وقد ينظر إلى التربية على أنها عملية روحية لتعميق إيمان الإنسان بخالقه وتقوية صلته به . وقد يقصد بها تسامي الإنسان عن رغباته الدنيوية وحاجاته المادية والبيولوجية . وقد يقصد بها عملية إعداد الإنسان لحياة الكبار أو تكيفه لبيئته المادية والاجتماعية . وقد ينظر إلى التربية على أنها خدمة المثل العليا للمجتمع أو خدمة المثل العليا للفرد . وقد يجمع بين النظريتين في ظل الديمقراطية مثلا . وقد ينظر إلى التربية على أنها عملية تنمية اجتماعية للفرد والمجتمع معا . وقد ينظر إليها على أنها عملية اقتصادية تعنى استثمار الأموال في الموارد البشرية التي هي عنصر هام من عناصر الإنتاج الرئيسية . ويصبح هدف التربية في ظل هذا المفهوم إعداد القوى البشرية المدربة التي تستطيع أن تقوم بدورها في مجال العمل والإنتاج . كما أن التربية لها دور رئيسي في عملية التنمية الاقتصادية ولها عائدها ومردودها الاقتصادي الذي يفوق أي عائد نحصل عليه من أي مجال استثماري آخر . وهذا هو مفهوم التربية بمعناها الاقتصادي . وقد يجمع بين أكثر من وجهة نظر من النظرات السابقة ، وقد يجمع بينها جميعا .

وهناك معنى آخر مخالف لكل ما سبق وهو أنه قد ينظر إلى التربية على أنها أحد فروع المعرفة الأكاديمية الذي ينقسم إلى تخصصات مختلفة في فلسفة التربية وأصولها وتاريخها ومناهجها وطرق تدريسها وغيرها من التخصصات التي تنقسم إليها التوبية.وهذا هو معنى التربية بالمعنى المهني Professional. وهكذا يمكن القول بأن للتربية منطلقات إنسانية وقومية وتنموية وعلمية واجتماعية مهنية.كما أن هذه المنطلقات يمكن أن ترمي إلى تحقيق أهداف متعددة منها ما هو من أجل المحافظة على المجتمع وتماسكه . ومنها ما هو للتغير والتجديد أو البناء أو الحراك الاجتماعي .ومنها ما هو متصل بنمو المهنة وتقدمها

التربية كعملية ونتيجة :

قد ينظر إلى التربية على أنها غاية في حد ذاتها تستهدف مساعدة الفرد

على تحقيق ذاته وتنمية قدراته وإمكانياته وتزويده بالمهارات المعرفية والسلوكية وأنها العملية التي تمكنه من أن يحيا حياة حرة كريمة بعيدة عن قيود الجهل وشبح الفقر وإهدار القيم والكرامة الإنسانية .

وقد ينظر إلى التربية على أنها وسيلة لتحقيق كل ما سبق أو على أنها وسيلة لخدمة أغراض الدولة والمجتمع . وتصبح التربية في هذه الحالة وسيلة الدولة أو المجتمع في خدمة أغراضها التي تستهدفها . وقد يكون ذلك بدون التضحية بالفرد نفسه أو قد يكون في ذلك تضحية به وبقيمته وكرامته كما في التربية الديكتاتورية .

وبصرف النظر عن اختلاف النظرة إلى التربية فإنه يجب أن نميز بين التربية كنتيجة والتربية كعملية . فالتربية كنتيجة تعني ما يحدث للفرد من خلال النمو والتعليم باكتساب ألوان المعرفة والمثل العليا والنمو الجسمي والعقلي والانفعالي والوجداني والاجتماعي . وهي كعملية تعني كل المؤثرات التربوية والثقافية التي يتعرض لها الفرد بصورة منظمة موجهة من خلال منظمات متخصصة أو بصورة غير منظمة من كل القوى المعلمة والمربية في المجتمع كالأسرة والمؤسسات الدينية وجميع وسائل الإعلام والاتصالات الجماهيرية وجماعة الرفاق والصحبة وغيرها .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن التربية عملية نمو الفرد . ولكن ليس كل عملية نمو تصاحب الإنسان أو تطرأ عليه تعتبر تربية إلا إذا كانت في الاتجاه المرغوب من قبل الأسرة والمجتمع ومنظماته الدينية والثقافية والتربوية . فهناك ألوان من السلوك غير المرغوب فيه يكتسبها الفرد من قرناء السوء . وهي لا تعتبر تربية لأنها لا تحظى بالقبول من المجتمع .

وهناك مظاهر من النمو الإنساني لا تدخل في نطاق التربية . فظهور الأسنان ونمو الشعر مثلا كلها مظاهر للنمو الإنساني تحدث نتيجة للنضج . وهي مظاهر للنمو مرغوب فيها . وتعتبر ضرورية لاكتمال صورة الإنسان كما أرادها الخالق عز وجل . كما أنها ضرورية لما يترتب عليها من أهمية لبقاء الإنسان واستمراره في الحياة من ناحية ، وما تستلزمه من مطالب تربوية مترتبة عليها من ناحية أخرى . والنمو الجسمي مثلا يحتاج إلى تمرين وتدريب وممارسة ورياضة ليشب قويا صحيحا مؤديا لوظائفه بانتظام . ويترتب على ذلك نتائج إيجابية لوظائف الجسم الأخرى . إن المثل يقول " العقل السليم في الجسم السليم " . وهو ما

يوضح العلاقة العضوية بينهما .

وهكذا يمكن تقسيم مظاهر النمو التي تحدث للإنسان إلى نوعين رئيسيين تبعا لأسباب حدوثها . فمنها ما يحدث نتيجة النضج وهو ما أشرنا إليه من قبل . ومنها ما يحدث نتيجة التعلم ، ويشمل ذلك كل ألوان السلوك المكتسب للإنسان من مهارات ومفاهيم وعادات واتجاهات وقيم وغيرها . وهناك علاقة عضوية بين النضج والتعلم فالنضج أساس التعلم . فتعلم الإنسان لمهارة الكتابة مثلا يتطلب مستوى معينا من النضج الجسمي وتعلمه المعارف والعلوم يتطلب أيضا مستوى من النضج العقلي وهكذا .

وهذا النمو الذي يطرأ على الإنسان سواء كان جسميا أو عقليا أو نفسيا أو اجتماعيا يحدث نتيجة تفاعل الإنسان مع بيئته المادية والاجتماعية التي يعيش فيها . وهذا يعني تداخل عناصر مختلفة في بيئة الإنسان في إحداث هذا النمو . وتشمل هذه العناصر كل القوى المعلمة في المجتمع إلا أن هذه القوى تختلف فيما بينها تبعا لدرجات القصد في التربية . فبعضها قد يؤدي إلى نمو الإنسان دون أن يكون هناك غرض مقصود لإحداث هذا النمو من جانب القوى المحدثة له . ولهذا تختلط مظاهر النمو المرغوب فيها وغير المرغوب فيها نتيجة لذلك . فالفرد يتعرض لخبرات سارة ومؤلمة . كما يتعرض لمواقف مختلفة في بيئته الطبيعية ويتعلم منها أشياء غير مقصود تعلمها لذاتها : وهذا النوع من النمو يطلق عليه تربية البيئة أو الوسط .

وهناك أيضا مظاهر أخرى للنمو تحدث نتيجة قيام الأسرة أو المؤسسات الدينية والاقتصادية والعسكرية . وفي مثل هذه الحالة يكون النمو مقصودا لذاته لكنه يأتي من جانب أفراد أو هيئات تختلف عن هيئات التربية والتعليم بمعناها المدرسي . ويطلق على هذا النوع من التربية التربية غير المدرسية تمييزا له عن التربية المدرسية والتي تتم في نطاق منظم من خلال تنظيم مدرسي له برامجه ومناهجه . وله معلموه ومشرفوه والقائمون عليه . فهذا النوع من التربية تبلغ درجات القصد فيه حدها المهني الأقصى لأنها تعتبر أن وظيفتها الأولى هي التربية . وهي تهدف إليها عن قصد وتكرس كل جهودها للبلوغ إلى أهدافها .

خلاصة :

يمكننا أن نستخلص من كل التعريفات السابقة أن التربية عمل إنساني . وهذا يعني أن للإنسان طبيعة خاصة يتميز بها عن جميع التصنيفات الأخرى من الكائنات الحية .

والتربية عملية نشاط متعلق بالأفراد ، فمعنى أننا نربي أننا نقوم بعملية نشاط . ومعنى أن يكون الفرد قد تربى أن يكون قد مر بعملية نشاط . فالتربية لا تعني في التحليل النهائي المعرفة أو المهارة والأخلاق ، ولكنها تعني أن الفرد قد تربى من خلال عملية النشاط .

والتربية عملية نمو تتضمن ما يصبح عليه الفرد في المستقبل . وهي عملية توجيه بمعنى أن التربية تتطلب إشرافا تربوية على الفرد الذي يتربى ، ويتم ذلك التوجيه عن طريق الأفراد المسموح لهم بالقيام بعملية التوجيه . كذلك يمكن للذات أن توجه الفرد لنموه . وهي ما تسمى بالتربية الذاتية وهي جزء هام من العمل التربوي كله . وكذلك يمكن أن يكون التوجيه قصديا متعمدا كالصديق الذي يوجه نمو صديقه عن قصد يعتبر مربيا . وعمليات التوجيه القصدية ترمي إلى التأثير في نمو الفرد وفي تعلمه . ومن هنا يمكن أن نصل إلى تعريف التربية بأنها عملية قصدية يتم عن طريقها توجيه الأفرد لنمو أفراد آخرين . إن الاعتراض الرئيسي على هذا التعريف للتربية هو أنه تعريف ضيق جدا لأنه يؤكد على التوجيه القصدي للنمو الإنساني . بينما يمكن أن يتعلم الإنسان أيضا بغير قصد وتعمد . ويمكن أن يرد على هذا النقد بأن التعريف الضيق مقصود لذاته لأنه يعطي درجة من الدقة والتحديد دون إهمال للمعاني العادية الهامة . وهذا التعريف وسط بين المفهوم الضيق للتربية بأنها " التعليم في المدرسة " والمفهوم الواسع للتربية " بأنها الحياة " (فينكس : ١٩٦٥).

تطور مفهوم التربية :

شهد مفهوم التربية عدة تطورات هامة على مر العصور . فكان هذا التطور نتيجة التحولات الاجتماعية من جانب ، واتساع النظرة العلمية إلى ميدان التربية من جانب آخر . ومن أهم هذه التحولات :

١ - أن ميدان التربية انتقل من مرحلة الجهود المبعثرة وغير المنظمة عندما كانت

التربية مسئولية الأسرة وغيرها من قطاعات المجتمع إلى مرحلة الجهود المنظمة التي تخطط لها البرامج وتنظم لها المشروعات وتكرس لها الجهود وتصدر بشأنها القوانين والتشريعات التي تنظمها وترسى قواعدها .

٢ - أنها انتقلت من مرحلة احتكار الأسرة لها إلى مرحلة المنظمات المتخصصة التي تقوم بها وتشرف عليها وتوجهها . وتظهر إلى جانب الأسرة المؤسسات الدينية والعسكرية والاقتصادية . وأخيرا ظهرت المدرسة كمنظمة تربوية رسمية .

٣ - أنها انتقلت من مرحلة تعليم القلة والصفوة إلى تعليم جماهير الشعب . كل الشعب . فقد كانت التربية في الماضي مقصورة على فئة مختارة من الناس قادرة اقتصاديا واجتماعيا . أما الآن فقد أصبحت التربية حقا لكل إنسان تعترف به المواثيق الدولية والقومية على السواء . وترتب على ذلك التزام كثير من الدول بتوفير حد أدنى من التعليم لكل أبنائها بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة أو المكانة الاجتماعية . وقد يعجب الإنسان من النمو الكمي الهائل الذي حدث في ميدان التربية خلال السنوات الأخيرة مما يدل على مدى التحول الجماهيري للتربية والتعليم في عصرنا الراهن . كما يتزايد من ناحية أخرى عدد السنوات التي يقضيها كل فرد في المدرسة مما يدل على مدى التوسع الرأسي إلى جانب التوسع الأفقي . وقد جاء هذا بالطبع نتيجة لنمو المفاهيم الاجتماعية وغلبة المؤسسات الديمقراطية من ناحية ، وزيادة آمال الناس ومطامحهم في الحياة من ناحية أخرى . وترتبط جماهيرية التعليم وزيادة الطلب الاجتماعي عليه بالضغوط الهائلة التي يواجهها أي نظام تعليمي في أي بقعة من العالم لكي يسمح باستمرار وعلى كل المستويات بقبول أعداد متزايدة من التلاميذ . ومن يدري ربما يأتي الوقت الذي تصبح فيه المراحل الجامعية العليا للتعليم حقا جماهيريا أيضا .

٤ - أنها انتقلت من كونها عملية تعليمية ضيقة تعنى بالحفظ والاستظهار والتحصيل إلى كونها عملية ثقافية دينامية تتسامى بعقل الإنسان وفكره وضميره وخلقه . كما تتكامل فيها الأبعاد الجسمية والنفسية والاجتماعية وغيرها . وأصبحت التربية تقوم على مفهوم شامل متكامل له أبعاد فردية

واجتماعية معا .

٥ - أنها انتقلت من كونها عملية مرحلية تنتهي عند مرحلة تعليمية معينة أو زمن معين إلى كونها عملية مستمرة مدى حياة الإنسان من المهد إلى اللحد. فالإنسان يتعلم ما بقي فيه حياة .

٦ - وانتقلت التربية بمفهومها المهني من كونها عملية يستطيع أن يقوم بها أي فرد إلى كونها عملية مهنية تتطلب الإعداد والمران قبل ممارستها . وهكذا تتزايد النظرة إلى التربية كمهنة لها احترامها كغيرها من المهن . ومع أن التربية لم تصل بعد إلى الدرجة التي تفرض فيها كل قواعد المهنة وأصولها لاعتبارات معروفة فإنها لاشك ماضية في هذا الطريق .

التربية والتعليم كمهنة :

إن التربية والتعليم مهنة من أشرف المهن وأقدسها بعد الرسالات السماوية . وهي في الواقع أساس غيرها من المهن . فمن الذي يكون الطبيب والمهندس والمحامي ورجل الدين والأدب والفن . إنه المعلم . فالمعلم هو أساس تكوين الأفراد في المهن المختلفة . ولم يعد التعليم مهنة من لا مهنة له كما كان في الماضي . وإنما أصبح عملية لها أصولها التي ينبغي أن يلم بها من يتصدى للاشتغال بالتعليم من خلال إعداده إعدادا مهنيا في معاهد وكليات خاصة .

وكل الحقائق والمعلومات التي يلم بها المعلم عن العملية التربوية وشخصية المتعلم ونموه ومطالب هذا النمو من الناحية التربوية والمنهج المدرسي وأصوله وطرائق التدريس المختلفة واستخدام تكنولوجيا التعليم كلها جوانب أساسية يلم بها المعلم وتكون الحس المهني لديه . فالتعليم مهنة لأنه يقوم على التخصص ويحتاج لإعداد طويل يتدرب فيه معلم المستقبل على أن يعد نفسه عقليا وعمليا للدخول في المهنة . والتعليم مهنة لها دستور أخلاقها الذي ينص على أن هدف المهنة خدمة المجتمع قبل أن يكون هدفها الكسب المادي . كما أن هذا الدستور الأخلاقي يفرض على المعلم ألا يبخل على تلاميذه بالمعرفة وأن يعلمهم الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة . ولا يجوز له أن يستغل ضعف تلاميذه بالسيطرة الفكرية عليهم أو ينقل إليهم تعصبه لفكرة معينة . وعليه أن يكون موضوعيا في معالجة القضايا العلمية والجدلية على السواء ، وأن يكون بناءا لا هداما . فالدور المهني

للمعلم يجعل منه عضوا نافعا للمجتمع يخدم أهدافه الكبرى . ولا يجوز للمعلم أن يحصل على مكاسب شخصية من تلاميذه أو من آبائهم . ولا يجوز له أن يسخرهم لخدمته .

والتعليم مهنة أيضا لها روابطها المهنية ونقاباتها واتحاداتها التي تحفظ للمهنة شكلها الرسمي والتنظيمي وتكون حامية لها من خلال ما تضعه من شروط تنظم الدخول في المهنة كما تنظم واجباتها والتزاماتها . إن التربية والتعليم مهنة تتوسل بالنظرية من أجل خدمة التطبيق . وهي في ذلك شأنها شأن المهن الأخرى لها أصول متعددة تستوحي منها أبعادها وخصائصها . ويلزم دارسي التربية والمشتغلين بها على السواء معرفة تلك الأصول وإدراك هذه الأبعاد حتى يتكون الحس المهني لديهم ويتعمق إيمانهم بالمهنة ويزيد حرصهم على نموها وتطورها . ولاشك في أن تعميق الجوانب المهنية للتربية يزيد من علو مكانتها وارتقاء شأنها في نظر المجتمع . وإن مما يزيد من قدر المعلم ومكانته في مجتمعنا المعاصر أن يصبح معلما مقتدرا يمارس المهنة على أصول علمية لا يلم بها غيره .

إن ما يميز المعلم عن غيره هو أن المعلم المهني يستند في ممارسته للمهنة وفي اتخاذه للقرارات التربوية المختلفة على أسس علمية يمده بها الإعداد المهني الطويل الذي تلقاه قبل دخوله المهنة . في حين أن المعلم غير المهني - ونعني به الذي لم يسبق له إعداد مهني في كليات التربية - فإنه يمارس المهنة ويتخذ قراراته التربوية بالاجتهاد الشخصي والمحاولة والخطأ . والفرق كبير بين النوعين . وإن مما يزيد من مكانة مهنة التعليم ويرفع من شأنها أن يتوحد المصدر الذي يتخرج منه المعلم بصرف النظر عن المرحلة التي يعمل بها. وإذا كانت مطالب الإعداد ستختلف بالطبع باختلاف المرحلة التعليمية التي يعد لها المعلم فإن هذا لا يعني تعدد مصادر إعداد المعلم ، بل يجب توحيد هذه المصادر في مصدر واحد .

إن توحيد مصدر إعداد المعلم أمر تفرضه النظرة إلى التربية كمهنة شأنها في ذلك شأن المهن الأخرى . وإذا كان الطبيب يعد في كلية الطب والمهندس في كلية الهندسة والمحامي في كلية الحقوق ، فإن إعداد المعلم يجب أن يتمثل في كلية التربية باعتبارها الصيغة المهنية المناسبة . ويجب أن يترك أمر إعداد المعلم أيضا شأنه شأن المهن الأخرى إلى الجامعة وليس لوزارات التربية والتعليم . فوزارة الصحة مثلا لا تقوم بإعداد الطبيب ، وكذلك الحال بالنسبة للمهن الأخرى ،

فلماذا تقوم وزارة التربية بالإشراف على إعداد المعلم ؟ ، وإذا كان التطور التاريخي لمهنة التعليم قد حتم أن تقوم وزارات التربية بهذا الدور فقد آن الأوان لكي تتخلى وزارات التربية عن هذه المسئولية للجامعات وقد توفرت لها كل إمكانيات القيام بهذا الدور في إعداد المعلم . إن هذا التوحيد سيكون له آثار بعيدة المدى على مستقبل تطور مهنة التعليم والارتقاء بشأنها والارتفاع بمستواها وتحقيق وحدة المهنة ونقاوتها وتكاتفها وضمان الوصول بمستويات المهنة إلى معدلات عالية من الكفاءة والفاعلية .

إن النظام التكاملي لإعداد المعلم كما هو متمثل في كليات التربية يعتبر صيغة مناسبة لإعداد المعلم ويجب تعزيزه والأخذ به في كل الدول العربية . ويجب ألا يفهم من هذا الكلام أننا نريد الوقوف عند صيغة واحدة جامدة ، وإنما ما نعنيه توحيد الصيغة كمصدر ، كما تتوحد كليات الطب والهندسة وغيرها كمصادر للإعداد للمهن . وفي نطاق صيغة كليات التربية يمكن الأخذ بنظم متنوعة لإعداد المعلم كالنظام التناوبي أو المعاود أو المتسارع الذي يجمع بين الإعداد والعمل في الميدان في نفس الوقت . ويجب أن ينظر إلى النظام التتابعي لإعداد المعلم المتبع حاليا على أنه نظام يمكن أن يوصف بأنه في حقيقته نظام للطوارئ أو الباب الخلفي للدخول إلى مهنة التدريس . ولهذا النظام عيوب كثيرة في مقدمتها أنه لا يجتذب أحسن العناصر لأن من يلتحق بهذا النظام يكون من خريجي الجامعة الذين لم يتيسر لهم العمل الذي يتطلعون إليه فيتوجهون عن غير رغبة عادة إلى طريق التدريس كملاذ أخير . وبدلا من هذا النظام يمكن النظر في إطالة سنوات إعداد المعلم في كليات التربية إلى خمس سنوات بدلا من أربع . وهو ما تفرضه التطورات الراهنة في مهنة التعليم .

ويحق لنا أن نتساءل هنا : هل هناك حقيقة فرق بين أداء المعلم المهني وغيره؟ إننا أحيانا نسمع من المسئولين في وزارات التربية والتعليم وهي الوزارات التي تستخدم المعلمين أنهم لا يلحظون فرقا حقيقيا في الأداء بين المعلم التربوي وغيره . وهذه قضية خطيرة لأنها وإن كانت تشير إلى ضعف إعداد المعلم التربوي فإنها أيضا توحي بأن التعليم أمر يقدر عليه أي إنسان ، أي أنها تؤكد ما يقال عادة بأن التعليم مهنة من لا مهنة له . وهنا مكمن الخطر . إننا نريد أن نرتقي بالتعليم ليصبح في مصاف المهن الراقية . وهذا لا يتأتى إلا إذا سلمنا بضرورة

الإعداد المهني ووضعنا له الضمانات الكفيلة بإنجاحه وزيادة فاعليته .

إن المعلم التربوي المهني يستند في قراراته التربوية كما أشرنا إلى الأصول العلمية للعملية التربوية التي تدرب عليها خلال إعداده كمعلم . وهو يتعلم من خلال هذاالإعداد ما يساعده على تكوين الحس المهني لديه . كما يمكنه من إصدار الأحكام المهنية . فالحقائق والمفاهيم والأسس والنظريات التي يتعلمها عن شخصية المتعلم من حيث نمو قدراته واستعداداته ودوافعه واهتماماته وميوله وقوانين التعلم المختلفة وشروط التعلم الجيد ونظرياته المختلفة وما يتعلمه عن المادة الدراسية وأسس اختيارها وتقديمها للمتعلم وطرائق التدريس واستخدام تكنولوجيا التعليم وأساليب التعليم المستخدمة تزوده بالمهارات المعرفية والسوكية التي تمكنه من ممارسة عمله على أسس علمية وليس بطريقة ارتجالية اجتهادية . كما أن المواد الدراسية التاريخية والفلسفية والمقارنة التي يدرسها تتكامل فيما بينها لتكون لديه الخلفية المهنية والمناخ المناسب الذي يمكنه من ممارسة عمله بطريقة عقلانية رشيدة . ومن هنا فلابد من أن ينعكس كل ذلك على أداء المعلم المهني ، ولابد له أن يكون متميزا في هذا الأداء عن غيره ممن لم يتلقوا هذا الإعداد المهني.

أهمية التربية :

سبق أن أشرنا إلى كلام الشيخ محمد عبده بأن التربية هي الطريق لنهضة الأمة الإسلامية . وفي عبارة مشهورة للرئيس الأمريكي الأسبق ليندون جونسون في الستينات قوله : إن الحل لكل مشكلاتنا القومية يتلخص في كلمة واحدة " التربية والتعليم" (Haralambos and Holborn : p . 730). ذلك أن التربية تلعب دورا رئيسيا هاما في حياة الشعوب جميعها المتقدمة منها والنامية على السواء . فقد برزت أهمية التربية وقيمتها في تطوير هذه الشعوب وتنميتها الاجتماعية والاقتصادية وفي زيادة قدرتها الذاتية على مواجهة التحديات الحضارية التي تواجهها . وتبدو أهمية التربية في الجوانب الآتية :

١ - أنها أصبحت استراتيجية قومية كبرى لكل شعوب العالم ، وأصبحت من حيث الأولوية لاتقل عن أولوية الدفاع والأمن القومي إن لم تزد عليها. وذلك أن رقي الشعوب وتقدمها وحضارتها تعتمد على نوعية أفرادها. والعبرة إذن هي في كيف البشر لا بكمهم وعددهم.وفي الماضي حكمت

بريطانيا الهند التي يسكنها مئات الملايين من البشر بعدة مئات من الموظفين الحكوميين . وإسرائيل بتعدادها الذي لا يتعدى المليونين تتحدى مائه وخمسين مليونا من العرب وما يزيد على أضعاف هذا العدد من المسلمين . وإذا كنا نتكلم عن نوعية البشر فإن هذا يبرز على الفور أهمية الدور الذي تقوم به التربية باعتبارها المسئولة عن هذا الجانب النوعي في الإنسان الذي هو بدوره موضوع التربية.ولهذا الأهمية الاستراتيجية للتربية ارتبطت بها ظواهر لم تكن مألوفة من قبل في العصور السابقة. ونعني بذلك ظاهرة مثل هجرة أو سرقة العقول البشرية وظاهرة التجسس الصناعي وغيرها.وكلها ظواهر تشير إلى الأساليب الملتوية التي تلجأ إليها الدول المعاصرة تحت ضغط الاحتياجات القومية الملحة للحصول على نوع من البشر من ذوي الخبرة الفنية أو المعلومات المتقدمة التي لاتتوفر لها ذاتيا .

ولتزايد أهمية التربية في حياة الشعوب أصبحت تمثل اهتماما قوميا لكل الحكومات والشعوب . ولايمكن لأي حكومة الآن أن تترك الحبل على الغارب في ميدان التربية أو التعليم لتتولاه الجهود المحلية أو الخاصة دون توجيه قومي من جانب الدولة . وهذه ظاهرة تنسحب بدرجات متفاوتة على كل شعوب العالم المعاصر حتى في الدول التي درجت التقاليد التربوية بها على اعتبار التعليم ليس مسئولية الحكومة وإنما هو مسئولية السلطات المحلية أو الولايات . وأوضح أمثلة على ذلك التحول الحادث الآن في التعليم الأمريكي والبريطاني . وكلتا الدولتين تولي على المستوى القومي اهتماما متزايدا قد يصل أحيانا حد التعارض مع المقررات الدستورية في حالة التعليم الأمريكي . وما أردنا أن نؤكده هنا أن التربية أصبحت تمثل عصب الحياة للشعوب المعاصرة . وهي لهذا تعتبر مسألة حيوية على جانب كبير من الأهمية ترصد لها هذه الشعوب الأموال اللازمة وتخطط لها وتوجهها .

٢ - أنها عامل هام في التنمية الاقتصادية للمجتمعات . فالعنصر البشري أهم ما تمتلكه أي دولة حتى بالنسبة للدول الفقيرة في مواردها الطبيعية وثرواتها الاقتصادية كاليابان مثلا التي تعتبر نموذجا حيا لدور التربية في تنمية العنصر البشري القادر على تحقيق التقدم والرخاء لبلاده . وهناك

أمثلة أخرى مشابهة من الدانمارك وكوريا الجنوبية . لقد تأكد الدور الهام الذي تقوم به التربية في زيادة الإنتاج القومي وبالتالي زيادة الدخل القومي . وأصبح ينظر إلى التربية من الناحية الاقتصادية على أنها استثمار في الموارد البشرية . كما أن التربية لهادور هام آخر في تنشيط المؤسسات الصناعية والإنتاجية من خلال تطوير المعرفة وأساليب العمل والإنتاج بهذه المؤسسات . وهناك كثير من الدراسات العالمية التي أولت اهتماما لدراسة العائد الاقتصادي للتعليم وأوضحت بما لا يدع مجالا للشك أن هذا العائد يفوق أضعافا مضاعفة نظيره من أي عائد آخر يأتي عن طريق أي استثمار في أي مجال آخر غير مجال التعليم . إن الفرد هو هدف التنمية ووسيلتها . وهو أمر تضعه كل دول العالم المعاصر نصب أعينها .

٣ - أنها عامل هام في التنمية الاجتماعية ، ومع أنه لايمكن فصل التنمية الاقتصادية عن التنمية الاجتماعية للارتباط العضوي الوثيق بينها ، فإن هذا الفصل له ما يبرره من جانب المعالجة العلمية . فللتربية دورها الهام في التنمية الاجتماعية للأفراد من حيث كونهم أفرادا في علاقة اجتماعية تفرضها عليهم أدوارهم المتعددة في المجتمع كالقيام بدور المواطنة الصالحة القادرة على تحمل المسئوليات والقيام بالواجبات التي تفرضها هذه المواطنة وممارسة الحقوق والواجبات القومية والاجتماعية والقيام بدور الأب والأم ودور الزوج أو الزوجة وغيرها من الأدوار الاجتماعية . ولاشك في أن نجاح القيام بهذه الأدوار يتوقف على درجة النضج التربوي والوعي الثقافي والفكري لدى الفرد . وبمعنى آخر يتوقف على مدى نجاح التربية في تكوين الاتجاهات السليمة لدى الفرد نحو المؤسسات المختلفة في المجتمع ونحو نفسه ونحو أهله ومواطنيه ونحو مجتمعه ككل ، بل ونحو الإنسانية جمعاء .

٤ - أنها ضرورة لإرساء الديمقراطية الصحيحة . فهناك مثل يقول : " كلما تعلم الإنسان زادت حريته " . وهذا يعني ارتباط الحرية بالتعليم ، فالتعليم إذن يحرر الإنسان من قيود العبودية والجهل . والحرية أو الديمقراطية لايمكن ان تعمل في ظل الأمية أو الفقر الثقافي . ولايمكن أن نتصور شخصا جاهلا

يمارس بنجاح حقوقه السياسية في الانتخاب والتصويت أو إبداء الرأي والمشورة . وهذا بالطبع يبرز أهمية التربية في تكوين المواطن الحر المستنير القادر على المشاركة الواعية في تقدم بلاده .

٥ - أنها ضرورة للتماسك الاجتماعي والوحدة القومية والوطنية . فالتربية عامل هام في توحيد المشارب والاتجاهات الدينية والفكرية والثقافية لدى أفراد المجتمع . وهي بهذا تساعدهم في خلق وحدة فكرية تمكنهم من التفاهم والتفاعل . وتؤدي إلى ترابطهم وتماسكهم . ويمكن للتربية أن تكون سلاحا ذا حدين . فكما أنها وسيلة للوحدة الفكرية والقومية فإنها يمكن أن تكون وسيلة لتفريق الناس وإيجاد العداوة بينهم كما يحدث في الدول العنصرية كجنوب إفريقيا وأمريكا في الماضي القريب . ففي هذه الدول كانت تستخدم التربية سلاحا للهدم والتدمير ضد الجانب الآخر بدلا من أن تكون سلاحا للبناء والتعمير كما هو المفروض . ونظرا لأهمية التربية في إرساء قواعد الوحدة القومية للبلاد فإن السلطات الحكومية في مختلف الدول تحرص على توحيد الاتجاهات التربوية والتعليمية داخل بلادها وتحريم كل نشاط تربوي أو تعليمي يتعارض مع ذلك . ومن الضمانات التي تتخذها الدول عادة في تحقيق ذلك ، فرض إشرافها على التعليم الأجنبي أو الخاص أو أي تعليم آخر يتوقع منه اتجاهات تربوية متباينة .

٦ - أنها عامل هام في إحداث الحراك الاجتماعي . ويقصد بالحراك الاجتماعي في جانبه الإيجابي ، ترقي الأفراد وتقدمهم في السلم الاجتماعي . وللتربية دور هام في هذا التقدم والترقي لأنها تزيد من نوعية الفرد وترتفع بقيمته بمقدار ما يحصل منها . ومن ثم يتحسن دخل الفرد ويزداد بمقدار ما يجيد من مهارات معرفية وعملية لازمة لسوق العمل والإنتاج . ويترتب على زيادة دخله تحسن في وضعه الاقتصادي وبالتالي أرتفاع وضعه الاجتماعي نتيجة لعلو مكانته في نظر الناس . يضاف إلى ذلك أن التربية إلى جانب مايترتب عليها من ارتفاع الوضع الاقتصادي تعمل على ترقية أذواق الفرد واهتماماته ، وترفع من مستوى طموحه وتفجر آماله في الحياة. وهذه كلها عوامل تؤدي بالفرد في النهاية إلى الترقي في السلم

الاجتماعي . وكما أن التربية يمكن أن تكون في جانبها الإيجابي حراكا اجتماعيا إلى أعلى ، فإنها في جانبها السلبي تكون حراكا اجتماعيا إلى أسفل عندما يقل حظ الفرد منها ويهبط بمستواه عما ينبغي أن يكون عليه نسبة لأهله وأسرته . ولذلك تعتبر التربية عاملا هاما في تحسين معيشة الأفراد وتذويب الفوارق الطبقية بينهم . كما أنها في النهاية تضيف إلى تحسين المستوى الاجتماعي للمجتمع ككل . وترفع من قدرته الذاتية على إحداث التقدم الاجتماعي المنشود .

٧ - أنها ضرورية لبناء الدولة العصرية ، ويعتبر الكلام السابق عن الجوانب المختلفة لأهمية التربية مندرجا تحت هذا العنوان ، فالدولة العصرية محصلة لكل هذه الجوانب . ومفهوم الدولة العصرية واسع مطاط ويتسع لكل هذه الجوانب . وإذا كانتالدولة العصرية تعني الدولة التي تعيش عصرها على أساس من التقدم العلمي والتكنولوجي ويتمتع فيها الفرد بالحياة الحرة الكريمة ويرفرف على جوانبها أعلام الرفاهية والعدالة الاجتماعية ، فإن التربية تلعب الدور الرئيسي في إحداث كل ذلك . ولذلك تعتبر التربية المدخل الحقيقي لتقدم الشعوب وتحقيق عزها ورخائها.

التربية من منظور وظيفي :

انصب اهتمام الباحثين الوظيفيين بالإجابة على سؤالين رئيسيين هما :

١ - ما وظيفة التربية في المجتمع ككل ؟ وهذا السؤال من المنظور الوظيفي لاحتياجات النظام الاجتماعي يتطلب تقويم الدور الذي تقوم به التربية في الحفاظ على القيم المشتركة والتضامن الاجتماعي بين أفراد المجتمع .

٢ - ما العلاقة الوظيفية بين التربية وأجزاء النظام الاجتماعي الأخرى ؟ وهذا السؤال يؤدي إلى فحص العلاقة بين التربية والنظام الاقتصادي وكيف تساعد هذه العلاقة في تحقيق تكامل المجتمع ككل .

ومن الكلام السابق يتضح أن النظرة الوظيفية للتربية تميل إلى التركيز على الاسهامات الإيجابية للتربية للحفاظ على بقاء واستمرار النظام الاجتماعي . وسنتناول في السطور الآتية آراء بعض الفلاسفة والعلماء الذين يمثلون النظرة الوظيفية .

١ - إميل دوركايم : Emile Durkiem التربية والتضامن الاجتماعي :

يرى إميل دوركايم عالم الاجتماع الفرنسي المشهور أن الوظيفة الرئيسية للتربية هي نقل معايير المجتمع وقيمه من جيل لآخر . وفي ذلك يقول :

« إن المجتمع لايستطيع البقاء إلا إذا تحققت درجة كافية من التجانس بين أفراده . والتربية من جانبها تعمل على تعزيز وتخليد هذا التجانس بتنشئة الطفل منذ البداية على السمات الضرورية المشتركة التي تتطلبها الحياة الاجتماعية ».

ويرى دوركايم أن ارتباط الفرد بمجتمعه يتأتى عن طريق تنمية إحساسه بالانتماء والتبعية والالتزام نحو هذا المجتمع . فالتربية من خلال تدريس التاريخ تعمل على تنمية هذا الاحساس لدى الفرد . وعندما يقدم تاريخ الأمة حيا للأطفال فإنهم يعرفون تاريخ أجدادهم العظام وسرعان ما يعرفون أنهم جزء من نظام أكبر منهم ، وبالتالي يتولد لديهم شعور بالولاء والالتزام نحو هذا النظام .

المدرسة والقواعد الاجتماعية :

يرى دوركايم أن المدارس في ظل المجتمع الصناعي المعقد تقوم بوظيفة لاتستطيع أن تقوم بها الأسرة أو مجموعة الرفاق . فأعضاء الأسرة تربطهم علاقة القرابة وجماعات الرفاق تربطهم علاقات الاختيار الشخصي . أما العلاقة بالمجتمع ككل فلاتقوم على نفس الأساس . فالأفراد يتحتم عليهم أن يتعلموا التعاون مع من هم ليسوا أقربا هم أو أصدقا هم . والمدرسة تقدم المناخ المناسب لتعلم ذلك . لأنها تعتبر مجتمعا مصغرا أو صورة مصغرة من المجتمع الكبير . وفي المدرسة يتفاعل ويتعامل الطفل مع باقي الأطفال في ضوء مجموعة من القواعد الثابتة . وهذه التجربة تمهد له بطريقة طبيعية تعلم التعامل مع أعضاء المجتمع الكبير في ضوء قواعده وقوانينه العامة . ولذلك فإن دوركايم يرى ضرورة قيام المدرسة بفرض الالتزام بقواعدها على الأطفال . كما يرى أن يكون العقاب على قدر خطورة الإخلال بهذه القواعد ومقدار الضرر الذي حدث نتيجة المخالفة . ويجب في هذه الحالة أن يوضح للفرد السبب في عقابه . ومن هنا يتعلم الطفل أنه من الخطأ الإخلال بالقواعد والنظام العام والتصرف ضد مصلحة الآخرين . كما يتعلم الطفل أيضا أن يضبط نفسه ويتحكم في سلوكه وتصرفاته

لاتفادي العقاب فحسب ، وإنما أيضا لما يسببه سوء السلوك من إخلال وتدمير للمجتمع ككل . وفي ذلك يقول دوركايم :

« إن الطفل باحترامه لقواعد وقوانين المدرسة يتعلم احترام القوانين بصفة عامة . وهو عندما يتعلم ضبط النفس والتحكم فيها منذ الصغر فإنه يشب عليه وتصبح عادة لديه » .

التربية ونظام وتقسيم العمل :

يرى دوركايم أن التربية تكسب الفرد مهارات معينة ضرورية لوظيفته في مستقبل عمله . وهذه الوظيفة مهمة بصفة خاصة بالنسبة للمجتمع الصناعي الذي يقوم على التخصص في تقسيم العمل . والمجتمع قبل الصناعي لم يكن في حاجة إلى التخصص في العمل . ولذلك كان الآباء يعلمون أبنائهم حرفهم دون حاجة إلى تعليم رسمي في المدرسة .

ويرى دوركايم أن المجتمع الصناعي يحتاج إلى تضافر جهود المهن والتخصصات المختلفة . وهذا الاعتماد المتبادل لأفراد المجتمع في شتى تخصصاتهم يؤدي إلى تضامنهم وتكاتفهم وتعاونهم . ومن هنا يستخلص دوركايم أن المدرسة تعمل على توحيد المجتمع وتجانسه وتعايشه من جانبين أحدهما تنشئة الفرد على القيم المشتركة للمجتمع الكبير . ثانيهما اكسابه المهارات الضرورية اللازمة للإنتاج الصناعي .

تالكوت بارسنز T . Parsons التربية والقيم العامة :

هو عالم اجتماع أمريكي مشهور . ويرجع الفضل إليه في بلورة النظرة الوظيفية إلى التربية . وقد حظيت هذه ا لنظرة بالصورة التي عرضها بارسونز بقبول كبير بين أهل الاختصاص . وقد كتب بارسونز في أواخر الخمسينيات يقول إن المدرسة تقوم بعد الأسرة بالدور الرسمي للتطبيع الاجتماعي . فهي تعمل كحلقة وصل بين الأسرة وبين المجتمع الكبير لإعداد الفرد للقيام بدوره فيه . وإذا كان الفرد في الأسرة يعامل على أساس صلة القرابة والميلاد فإنه في المدرسة والمجتمع الكبير يقاس على أساس القيم العامة السائدة . وهو يتفق مع دوركايم في أن المدرسة صورة مصغرة للمجتمع الكبير . وأنها تعد الفرد لدوره في مستقبل عمله على أساس تكافؤ الفرص والقدرة على الإنجاز ، لأن المجتمع الصناعي في

نظر بارسونز يتطلب قوة عمل قوية الدافعية موجهة نحو الإنجاز في العمل . ويرى باسونز أن نظام التعليم وسيلة فعالة لتحديد دور الفرد في المجتمع . وعلى حد تعبيره فإن هذا النظام التعليمي يقوم بوظيفة تحديد مكانة القوى البشرية في مستقبل عملها ودورها في المجتمع . ومن هنا فإن المدرسة عندما تقوم بوظيفة التعليم والاختبار والتقويم للتلاميذ فإنها تعمل على المزاوجة بين الفرد وأحسن الأدوار التي تتناسب مع قدراته وامكانياته . أي أن المدرسة أهم وسيلة لتحديد أدوار الأفراد في المجتمع على أساس الجدارة والكفاءة .

التربية من المنظور الحر أو الليبرالي Liberal :

يؤمن كثير من المربين وفلاسفة التربية بالنظرة الحرة أو الليبرالية في التربية . وهذه النظرة على عكس النظرة الوظيفية تركز على التربية في علاقتها بالفرد أكثر من علاقتها بالمجتمع . والهدف الرئيسي للتربية في ظل هذه النظرة هو تنمية ذاتية أو شخصية الفرد ، وهذا هو الهدف المباشر . وهناك هدف آخر غير مباشر هو تنمية المجتمع .

ومن أشهر فلاسفة التربية الذين دعوا إلى التربية الحرة أو الليبرالية المربي الأمريكي ذائع الصيت جون ديوي . وهو يرى أن وظيفة التربية تشجيع الأفراد على تنمية كل إمكانياتهم وقدراتهم ككائنات بشرية . وهو يركز بصفة خاصة على تنمية العقل وقدراته . فالتمدرس يساعد على تنمية الجوانب الجسمية والعاطفية والروحية لكل فرد كما ينمي مواهبه و قدراته العقلية . وقد انتقد ديوي التعليم الأصم أو تلقين المعلومات في المدرسة ونادى بطريقة تدريس تقدمية تقوم على التعلم من خلال الخبرة والممارسة وعمل الأشياء . وهذه الطريقة تساعد الطفل على تنمية مهاراته المعرفية والعملية اللازمة لحل أي مشكلة تصادفه . كما أنها تولد الدافعية لديه للتفكير الناقد والتعامل العقلاني مع البيئة المحيطة به والعالم من حوله . ويؤمن ديوي ومن نحا نحوه من المربين التقدميين أن التربية التقدمية تمثل جزءا حيويا هاما من أي نظام ديمقراطي سليم . لأن السلطة والقوة للشعب وهو مصدر السلطات في ظل الديمقراطية . ولاديمقراطية بدون مواطن مستنير قادر على التفكير وحسن استخدام حقوقه ومسئولياته . والتربية الحرة هي أساس الديمقراطية ، فلا تربية حرة في ظل الدكتاتورية .

وقد كان للتربية التقدمية تأثير على السياسة التعليمية الأمريكية خلال الستينيات وامتد تأثيرها على السياسة التعليمية في بريطانيا خلال الستينيات والسبعينيات . وعرفت هذه التربية أيضا باسم التربية المتمركزة حول الطفل ، وفي منتصف السبعينيات شهدت بريطانيا حملة قوية تزعمتها الصحافة بعدما كشفت تقارير المفتشين على المدارس من ضعف مستوى التلاميذ في تعلم المهارات الأساسية الثلاث وهي القراءة والكتابة والحساب . وعزي ذلك إلى أسلوب التربية الحرة في معاملة الأطفال في المدرسة وماترتب على ذلك من التسيب والإخلال بالنظام المدرسي وانعدام الضوابط للتوجيه والإرشاد . وترتب على ذلك العدول عن نظام التربية الحرة المتمركزة حول الطفل خلال الثمانينيات والتسعينيات إلى تربية جديدة موجهة نحو إعداد الفرد للمجتمع الصناعي وتنمية الثروة القومية .

إيفان إلليتش Ivan Illich اللامدرسية :

تختلف نظرة إيفان إلليتش عن النظرة التقليدية للتربية الحرة في الدعوة إلى تغييرات جذرية متطرفة للنظام التعليمي تقوم على أساس تجريد المجتمع من المدارس وإلغائها . ونادى بأن التمدرس غير ضروري بل إنه مضر للمجتمع . ولم يكن الليتش مربيا بحكم إعداده وتأهيله لكنه درس اللاهوت والفلسفة وعمل عدة سنوات في نيويورك كقسيس كاثوليكي .

ويرى إلليتش بأن المدارس غير فعالة في تعليم المهارات اللازمة لكسب العيش والحياة .ولذلك فهي تتعارض تماما مع الأفكار التربوية التي يؤمن بها . وهي تقوم على أن الأفضل هو ترك تعليم هذه المهارات لأولئك الذين يستعلمونها في حياتهم اليومية (مثل تعليم النجارة يترك للنجار) . وهو يرى أن التعلم الحقيقي ليس نتيجة التدريس في المدرسة ، وإنما بانخراط الفرد مباشرة في عملية التعلم بطريقة عملية . وهو يرى أن معظم ألوان التعليم لا يحتاج إلى معلم . وقد نظر إلى المدارس على أنها مؤسسات للقهر تلقن التلميذ وتقتل فيه الابتكارية والخيال من خلال منهجها الخفي . فالتلميذ يساق إلى التعلم ولا رأي له فيما يتعلمه . ولكي ينجح التلميذ لابد له أن يتوحد مع النظام التسلطي القهري للمدرسة . وفي النهاية يحصل على شهادة تعتقد المدرسة جدلا أنها تؤهله للدخول إلى دنيا الحياة وسوق العمل . ويرى إلليتش أن النظام التعليمي هو أصل وجذر

مشكلات المجتمع الصناعي الحديث . ولذلك نادى بإلغاء المدارس وتجريد المجتمع الحديث منها .

التربية من المنظور الديمقراطي الاجتماعي :

يتشكل المنظور الديمقراطي الاجتماعي للتربية من جانبين رئيسيين . أحدهما يتعلق بتكافؤ الفرص التعليمية . والثاني يتعلق بتحقيق الرفاهية الاجتماعية والتقدم والنمو الاقتصادي . أما فيما يتعلق بالجانب الأول فقد برز نتيجة الانتقادات التي وجهت إلى المنظور الوظيفي الذي يدعي بأن التعليم يقدم للأفراد فرصا حقيقية متساوية . وكذلك الانتقادات التي وجهت إلى المنظور الليبرالي على أنه فشل في تنمية امكانيات وقدرات الفرد . كما انتقد النظام التعليمي على أنه فشل في كفالة الفرص التعليمية المتساوية لأبناء الطبقات الفقيرة واتجه منحازاً للطبقة المتوسطة والأعلى . وانتقدت أيضا الثنائيات التي كانت تسود أنظمة التعليم في الماضي على أنها غير ديمقراطية ولا تحقق العدالة الاجتماعية لأنها تميز بين تعليم الغني وتعليم الفقير . كما تعالت الصيحات والدعوات بضرورة تدخل الدولة في التعليم لضمان تحقيق تساوي الفرص للجميع .

وتؤمن النظرة الديمقراطية الاجتماعية بأن التعليم إذا ما أحسن تنظيمه يستطيع أن يكفل بالعقل العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص . وعندئذ يستطيع أن يكون أداة فعالة في إحداث الحراك الاجتماعي Social Mobility وتذويب الفوارق بين طبقات المجتمع .

أما فيما يتعلق بالجانب الثاني وهو تحقيق الرفاهية والتقدم الاقتصادي للمجتمع فيقوم على أساس دور الأفراد في القيام بذلك . لأن التعليم عندما يقوم على أساس الجدارة والكفاءة لا تُيل الميلاد ، وعندما يحقق العدالة وتكافؤ الفرص للجميع ، وعندما يتعلم الفرد إلى أقصى ما تسمح به قدراته وإمكانياته فإن المحصلة النهائية لكل ذلك أن كل فرد يستطيع أن يسهم بكل طاقاته في تقدم المجتمع وتحقيق رفاهيته . ذلك أن بذل الطاقة والجهد من جانب الأفراد في أي ميدان من ميادين العمل يعتبر استثمارا بشريا لايقل أهمية عن استثمار رأس المال . وعندما يعمل الجميع ويسهمون في زيادة الانتاج القومي فإن ذلك يعود بالرفاهية على جميع أبناء المجتمع . وقد تعزز هذا الجانب في النظرة الاجتماعية

الديقراطية للتعليم بانضمام رجال الاقتصاد إلى جانب رجال التربية في الدعوة بأن التعليم لايعتبر مجرد خدمة تقدمها الدولة ، وإنما هو استثمار في المصادر البشرية . وأصبح ينظر إلى نظام التعليم على أنه الجهاز المسئول عن إعداد القوى البشرية المدربة المؤهلة للعمل في كل ميادين العمل والانتاج . وقد انتشرت هذه الدعوة وذاع صيتها خلال الستينيات والسبعينيات وامتدت إلى الثمانينيات . وبعدها بدأت تظهر خيبات الأمل نتيجة فشل نظم التعليم في تحقيق التقدم الصناعي والاقتصادي المنشود . ووجهت إليه الانتقادات على أنه لايخرج أفراد صالحين للعمل ، وبذلت محاولات كثيرة للمزاوجة بين المهارات التي يجب تعليمها في المدارس والمهارات اللازمة للعمل والانتاج . كما عملت محاولات كثيرة لإيجاد أنظمة بديلة للتدريب والتأهيل المهني . وكانت الضربة القاضية عندما شهدت كثير من الدول الصناعية المتقدمة بصفة خاصة ركوداً اقتصاديا عاما مازالت تعاني منه حتى الآن .

التربية من منظور إسلامي :

يقدم لنا عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ - ١٩٠٢م) برنامجا تربويا متكاملا من المنظور الإسلامي فيقول : « والحكومة العادلة تعنى بتربية الأمة من وقت تكون الجنين ، بل قبله بسن قوانين للزواج الصالح ثم بالعناية بالقابلات والأطباء ثم بفتح بيوت اللقطاء ثم بإنشاء المكاتب والمدارس وتنظيم خططها متدرجة إلى أعلى مرتبة ثم تسهيل الاجتماعات والإشراف على المسارح ثم تشجيع النوادي وإنشاء المكتبات وإعلاء شأن النوابغ بإقامة النصب ونحوها . ثم بتنمية المشاعر القوية بشتى أنواعها وتيسير الأعمال وغير ذلك . (أحمد أمين : زعماء الإصلاح : ص ٢٦٣) .